

سلسلة ابحاث في العقيدة

{٢}

توحيد العبودية عند الصوفية

العابدون- المريدون - العارفون

بقلم الباحث / محمد حمدى سيد صالح

(أبو عُمير محمد الحلوانى)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبالك علي عبدك ونبيك محمد وعلي إليه وصحبه ومن صار علي نهجه إلي يوم الدين أما بعد البحث الثاني عنوان البحث

توحيد العبودية عند الصوفية

عناصر المحاضرة

- ✓ أنواع السالكين عند أوئل الصوفية
- ✓ النوع الأول : العابدون
- ✓ النوع الثاني : المريدون
- ✓ النوع الثالث : العارفون
- ✓ طريق السلوك الصوفي للعابدين والمريدين والعارفين

مقامات الصوفية أو المقومات الذي اجتهدوا في أن يعرفوا الناس بحقيقتها ودخل فيها جانب بدعي يحتاج إلي وقفة وقضية توحيد العبادة لان توحيد العبادة هو أساس الدين وهم بذروا جهدا كبير علي اعتبار أنهم يظنون إن التصوف يمثل درجة الإحسان وهي اعلي المقامات ويعتبرون أنفسهم أنهم أفضل من الفقهاء والمحدثين فهل هذا الكلام صحيح وخصوص أننا نريد في قضية توحيد العبادة أن نحقق العبادة كما ينبغي من

خلال طريق السلف الصالح وما كان عليه الصحابة والتابعون فما استحدثته الصوفية في قضية توحيد العبادة كيف نتعامل مع هولاء وفي نفس الوقت نأخذ ما عندهم في هذا الباب لان بن القيم سعي بكل جهده إلي ذلك وبذل جهدا كبيرفي كتابه مدرك السالكين فابن القيم سعي في كتابه مدرك السالكين لشرح منازل السائلين المعبر عن مقامات الصوفية حتى نعرف كيف نتعامل معهم

وأن توحيد العبودية له من المكانة والأهمية ما أجمعت عليه النصوص القرآنية والنبوية بحيث لو نظرنا الي كل النصوص نجد أنها تدل علي توحيد العبادة والله قال ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾[1]

لكان نود أن نتكلم عن في قضية توحيد العبادة علي ركنين أساسين نحن نذكر في كل خطبة وكل محاضرة لان هذا أساس عندنا وهو أن العبادة لان تقبل إلا بشرطين أساسين أو ركنين أساسين ألا وهما

الركن الأول : الإخلاص

هذا ما كان عليه صحابة النبي أن الإخلاص والعبادة لا تصرف لغير الله ليس معه شريك في العبادة

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ معي غيري تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» .[2]

---

[1] -النحل

[2] - رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله ٤\٢٢٨٩(٢٩٨٥)

الركن الثاني : المتابعة

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» .[٣]

فهذا الكلام واضح نحن ننفذ الأمر التكليفي بناء علي التوجهات النبوية وقضية العبادة تتنسب مع الفطرة هل لها بداية ولها نهاية ولا أي موقف ابتلاء له حكم شرعي المفترض في الحكم الشرعي أن أنفذ أمر الله وليس فلسفة فكرية ولا أي شيء من ذلك لكن المسالة واضحة جدا أن الأمر يتطلب إخلاص لله وهو وقول لا اله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله واشهد أن محمد رسول الله وهذا يتطلب المتابعة للنبي في كل موقف ابتلاء بحيث في كل موقف اتبع فعل النبي مثل في الزواج افعل ما فعله النبي في الصيام افعل ما فعله النبي في الحرب افعل ما فعله النبي في وجود المال افعل ما فعله النبي فهذه الأفاعيل الذي كان يفعلها النبي إن أتأس به فهذه المواقف ليست محسوبة مثل ذلك لو واحد غني عليه أحكام ليست علي الفقير فللفقير ممكن لا تلزمه أحكام الغني لكن نريد أن نتكلم عن الصوفية بأنهم وضعوا نظام في العبودية وقالوا هذا توحيد العبودية قسموا الناس الي ثلاثة درجات

الدرجة الأول : العابدون درجة العابد اقل مند درجة المريد

الدرجة الثاني : المريدون درجة المريد أعلى من درجة العابد

الدرجة الثالث : العارفون درجة العارف أعلى من درجة المريد

---

[٣] - رواه مسلم في كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ١٣٤٣١٣ (١٧١٨)

فجعلوا هذه منازل ليسلك طريق العبودية بحيث لا يكون مريد إلا بعد أن يكون عابد ولا يكون عارف إلا بعد أن يمر علي درجة العابد ودرجة المريد

هذه النظر الموجودة في كتب الصوفية ولكن بنظرة إجمالية

العابدون المريدون العارفون هذه التقسيمات هي عند مشايخ الصوفية في كتبهم التي تعتبر من انقى الكتب لان سيأتي بعد ذلك مصطلحات من الصعب فهمها تحت مسمي وحدة الوجود والحلول والاتحاد

مذهب الحلول والاتحاد له طريقين

الطريق الأول : حلوليت الجهمية

الطريق الثاني : حلوليت الصوفية

فالحلول والاتحاد إما سببه الجهمية لدخول عقولهم في الأسماء والصفات كما حدث من الجهم بن صفوان لما قال إن الله في العالم في كل مكان هذه الفكرة تمسك بها المعتزلة وتمسك بها الاشعرية حتى انتشر هذا المذهب في كل مكان فمذهب حلوليت الجهمية سببه فلسفة سبب عقلي

مذهب حلوليت الصوفية مبني علي أن الشخص من شدة الحب يحدث فيه عملية تبادل في الإنية يعني لما أقول أنا اقصد صحبي علي اعتبار لو رجلين احدهما اسمه احمد والآخر اسمه محمد فنادي علي احمد واحمد لم يكن موجودا فمحمد يرد ويقول أنا فحل مكان احمد فسبب الحلول هذا المحبة فهذه حلوليت الصوفية لأنهم تعاملوا مع الله كتعاملهم مع بعض فقاسوا محبة المخلوق بالخالق كمحبة المخلوق للمخلوق فبدئوا يعبروا في أعلى درجة عندهم وهي درجة العارف بكلمة أنا فكلمة أنا يقصد بها الخالق أو المخلوق هم يقولون هو ليس في

خالق ومخلوق هو كل خالق فهذه حلوليت الصوفية سببه ذوقي وهذا كله ضلال لذلك قال بن تيمية عن الشيخ الهروي وهو سلفي المعتقد قال عنه بن تيمية انه فر من حلوليت الجهمية ووقع في حلوليت الصوفية

درجات السالكين

يعني سالكين في تحقيق العبادة لرب العالمين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين قالوا الأول تسلك طريق العبودية ثم بعد ذلك تسلك طريق المريدين ثم بعد ذلك تسلك طريق العارفين لذلك بعضهم قال في الآية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾[٤]

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيعرفون علي أساس إن المعرفة درجة أعلى من العبودية يقول إن البداية في العبودية والنهاية في المعرفة لذلك يقول سيدي العارف بالله لم يقولوا سيدي العابد لله ويقولوا أيضا اللهم افتح عليك فتوح العارفين

نشأت الصوفية في نهاية عصر السلف وكان ذلك في بداية عصر المعتزلة فكان أمام الصوفية مذهب المعتزلة ومذهب السلف فهم لم يقفوا مع مذهب المعتزلة ووقفوا مع مذهب السلف في باب توحيد الأسماء والصفات وكان من أوائل الصوفية من يرد علي المعتزلة رد جامدا حتى كان شيخ الإسلام بن تيمية يستشهد بكلامهم ويقول عليهم المشايخ فالمشايخ هم الذين كان في القرن الثالث الهجري مثل (سهل بن عبد الله التستري –

---

[٤] - الذاريات

الجنيد بن محمد – أبو بكر الشبلى) فكانوا يردوا علي المعتزلة في الصفات فلما ظهر مذهب الاشعرية في القرن الرابع في عصر أبي حسن الاشعري

فظهر الشهرستاني والرازي وانتشر المذهب الاشعري فبدأ الصوفية تتأثر بمذهب الاشعرية وارد القشيري أن يأتي بكلام الأوائل من الصوفية وهم المشايخ وينسبه للمتكلمين فارد أن يأخذ كلام المشايخ لما كانوا يردوا علي المعتزلة وأرد أن ينسبه للاشاعرة فبن تيمية ألف كتابين كتاب الصفدية وكتاب الاستقامة علشان يرد علي القشيري ومن جاء مثله ليقول لهم إن المشايخ كانت علي مذهب السلف وليس علي مذهب الاشاعرة فنصف الصوفية في مذهبهم في باب الأسماء والصفات فكثير من الصوفية كان علي مذهب السلف الصالح في الرد علي المعتزلة في باب الأسماء والصفات

أنواع السالكين عند أوئل الصوفية

النوع الأول : العابدون

طريق العابد : هم الزاهدون في الدنيا المعرضون عن زخرفها وجاهها المقبلون علي الله بقلوبهم قد أحكموا أركان الإسلام وحفظوا الحدود وتمسكوا

بالسنن وبحثوا في أنواع الطاعات والآداب والعبادات والأخلاق الشريفة والأحوال المرضية وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله والأسوة به واقتفاء أثره بما بلغهم من آدابه وأخلاقه وأفعاله وأحوله فعظموا ما عظم وصغروا ما صغر وقللوا ما قلل وكثروا ما كثر وكرهوا ما كره واختاروا ما اختار وتركوا ما ترك وصبروا علي ما صبر وعادوا من عادى ووالوا من والي وفضلوا من فضل ورغبوا فيما رغب وحذروا مما حذر

وعالجوا أمورهم في التوبة والمراقبة والتقوى والمجاهدة والخوف والرجاء والتوكل والشكر واليقين والصبر وترك الشهوة والحزن والخشوع والقناعة والتواضع والخضوع والإخلاص والمراقبة والصدق والفقر والجود والسخاء والحياء والذكر والمحبة والإرادة والتوحيد والاستقامة والرضا والدعاء والمداراة والغيرة وآداب السفر والموقف من الموت ومخالفة هوي النفس وإصلاح عيوبها وترك الحسد والغيبة والنميمة والتباغض واحتمال الأذى والتجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة والبشر وطلاقة الوجه والإنفاق من غير إقتار وغير ذلك من السلوكيات الحميدة

وهذه طريق الإسلام طريق الأنبياء والمرسلين وهذا كان حال الصحابة

فالتقوى عند العابد هي ما ورد به النقل من حفظ النفس عما يؤثر وذلك بترك المحذور وفعل المأمور والمتقي هو الذي يجعل طاعته لله وامتثاله لأوامره وقاية له من عذابه ويتم ذلك أيضا بترك بعض المباحات المشتبهات حتى لا يقع في الحرام

وينسب إلى أحمد بن عطاء الآدمي (ت:٣١١هـ) :

للتقوى ظاهر وباطن ، فظاهرها محافظة الحدود وباطنها النية والإخلاص) [٥]

هذا كلام منضبط وجميل علي هذا الفهم

وروى عن أبى الحسن الوراق النيسابورى (ت:٣٢٠هـ) أنه قال :

٥ -. الرسالة القشيرية ١/٣٠٨

(أجل شئ يفتح اللَّه تعالى به على عبده التقوى ، فإن منها تتشعب جميع الخيرات وأسباب القرب والتقرب ، وأصل التقوى الإخلاص وحقيقتها التخلى عن كل شئ إلا ممن إليه تقواك [6]

ولأبى القاسم النصرباذى (ت:٣٦٧هـ) أيضا ، في التبصير بمعنى التقوى : (من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا لأن اللَّه سبحانه يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [7] [8]

وقال الطوسي (ت:٣٨٧هـ) : (معنى قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ . [9]

ويقول القشيرى أيضا (ت: ٤٦٥هـ) : أصل التقوى ، اتقاء الشرك ، ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات ، ثم بعده اتقاء الشبهات ، ثم يدع بعده الفضلات . [10]

النوع الثاني : المريدون

المريد متوسط بين العابد وبين العارف

المريد هو الذين جعلوا النفس سجينة في البدن ولا مراد إلا محبة ربهم فمن ادعي العبودية منهم وله مراد باق فيها فهو كاذب في دعواه فلا يريد في محبته عوضا من الدنيا أو من الآخرة لا يريد جنة ولا خوفا من النار بل يمارس الرقابة علي نفسه طالبا محبة الله وقربه فلا مناص من المراقبة بلا هوادة في النظر والسمع والقول والحركة

---

[6] - طبقات الصوفية ص٣٠٠ .
[7] -الأنعام
[8] - الرسالة القشيرية ٣٠٧/١
[9] - اللمع ص١٢٢
[10] - الرسالة القشيرية ٣٠٦/١

والفعل والعمل علي الانتصار علي النفس في تحطيم مراداتها وتعلقها بطلب العوض في العمل حتى لو كان العوض دخول الجنة

وهذا يعنى إن العابد يعبد ربه لجلب الحسنات ويرجوا الله أن يعفوا عنه السيئات هم قالوا إن العابد يبحث عن جنة والبعد عن نار لكن المريد يحب الله لذاته

وهولاء يظنون أن طلب الجنة مراد النفس ولا بد للمرء من إغلاق الأبواب علي ذاته وتركيز اهتماماته في تنفيذ مراد محبوبه ابتغاء للمحبة المجردة من أي مراد له

أبو يزيد البسطامى مرة يتكلم بلسان العابدين ومرة يتكلم بلسان المريدين ومرة يتكلم بلسان العارفين

قال : **إن اللَّه قد أمر العباد ونهاهم ، فأطاعوه ، فخلع عليهم خلعه ، فاشتغلوا بالخلع عنه ، وإني لا أريد من اللَّه إلا اللَّه**[11]

هو يتكلم عن العابدين إن درجتهم ليست هي الدرجة وان درجة المريد اعلي من درجة العابد هو يتكلم عن العابدين وأنهم اشتغلوا بالخلعة التي أعطهم الله وهي الجنة والبعد عن النار

ويقول " الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة ، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم[12]

أهل المحبة هم المريدين لما يتكلم عن الزهاد فهو يعني العابدين ولما يتكلم عن المحبين فهو يعني المريدين

محجوبون بمحبتهم يعني محجوبون عن الجنة والبعد عن النار أو أي شائبة تحجب عنه المحبة

---

[11] - طبقات الصوفية ص٧٠ ، ص٧٢

[12] - الرسالة ٢/٤٦١ .

وقال **إن لله خواص من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار** [13]

هو يتكلم عن درجة المريدين هو يقول إنهم جماعة يريدون أن يكون في اتصال مباشر مع ربهم محبة فيها لا يريدون جنة ولا نار فلو هم في الجنة ولم يروا ربهم استغاثوا ليخرجوا من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار

فبدا الشيطان يدخل لهم من هذا الباب بعد أن كانوا متمسكين بالحق في البداية

قال أبو بكر الشبلى : (إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها) [14]

هو يظن أنه لو أحب لتصف بأوصاف المحبوب حينئذ لو بزق علي جهنم لأطفئها

وقال أيضا :

(لو خطر ببالي أن الجحيم بنيرانها وسعيرها تحرق منى شعره لكنت مشركا) [15]

لكنت مشركا مشرك بلسان المريد غير مشرك بلسان العابد فالعابد الشرك عنده أن يشرك غير الله مع الله في العبادة أما الشرك عند المريد هو أن يحب مع الله شيء أخر فان أحب الجنة او خاف من النار حينئذ أشرك مع الله وهذا عند المريدين

ولما سمع قارئا يقرأ هذه الآية : ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [16] **قال : ليتنى كنت منهم** [17]

---

[13] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠\٤٣

[14] - اللمع ص ٤٩٠

[15] - السابق ص ٤٩١

[16] -المؤمنون

[17] - السابق ص٤٩١ والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٦١، ١٨٤

فالصوفية لما يسمع هذا الكلام ونحن نرفض هذه العبادات يقول إنهم لا يفهموا شيء هذا تحريف للشريعة

وبعد ذلك تقول انه نية وقصده طيب

ليتنى كنت منهم يعني ليني في النار حتى اكلمه لان أحبه لان من شدة الحب ادخل النار حتى لو عذبني

وهذا تهجم في قضية الخوف من النار بحيث نرى الآن من يقول يا شيخ أنت تتكلم عن النار وتخوف الناس تكلم

عن الجنة وهو يقصد عدم الكلام عن النار والآيات التي ذكرها الله فأين نذهب بها

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ﴾[١٨]

فتغيرت النظر للألفاظ القران فالتقوى مثلا كانت عبارة عن التزام بأمر واجتناب نهي فهنا جاء الأوامر بمعني اخر

فالتقوى أصبحت عندهم بتقوى العوام وتقوى لخواص وتقوى خاصة الخواص

تقوى العوام يقصدون العابدون

تقوى الخواص يقصدون المريدون

تقوى خاصة الخواص يقصدون العارفون

توبة العوام و توبة لخواص و توبة خاصة الخواص ذكر ويقول بعضهم ليس في توبة

ذكر العوام و ذكر لخواص و ذكر خاصة الخواص ذكر ويقول بعضهم عدم الذكر

---

[١٨] - المعارج

النوع الثالث : العارفون

هم أصحاب الفناء الذين قطعوا الطريق واجتازوا المضيق قال رويم : رياء العارفين أفضل من أخلاص المريدين الله لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله وافتقار إليه

وانتقل الواحد منهم من مجرد عابد سالك أو متوكل مريد يجعل كده وجهده في مزيد من التأسي والمجاهدة ثم المعاملة علي محبة فردا لفرد بلا عوض إلي عارف يتجاوز الإحساس بالعبادة والإرادة فيفني عن نفسه وإحساسه للبقاء في المشاهدة ويذهب القلب عن مشاهدة المشاهدة ثم يذهب عم ذهابه والذهاب عن الذهاب يتواصل بلا نهاية ومن ثم يتحول الفناء عن الحواس إلي فقدان الإحساس ويصبح الصوفي فاقدا لوعيه فقدانا تاما [19]

مصطلح المشاهدة الذي يسمنه مصطلح الحضرة يعني انه لا يرى احد غير الله فكلمة فني عمن سواء الله أو عن شهود السوا يعني كل ما سوا الله هو لا يراه يعني لو نظر إلي واحد فهو ينظر إلي الله وليس هذا الشخص في هذه الحالة يقول الشخص هو في غيبة وحضوره مع الحق

والمعرفة عند الصوفية توجب غيبة العبد عم نفسه لاستيلاء ذكر الحق سبحانه عليه فلا يشهد غير الله لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله وافتقار إليه

قال رويم بن أحمد البغدادي : المعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلي له مولاه

المفترض أن انظر في المرآة أرى نفسي لكان هنا قال لا إذا نظرت في المرآة أرى الله فهو يتكلم علي أن الله تجلي فيه

وسئل بن يزدانيار : متى يشهد العارف الحق سبحانه ؟

[19] - الصوفية في الإسلام لنيكلسون ص١٣٩ وانظر اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٢٣

فقال : إذا بدا الشاهد وفني الشواهد وذهب الحواس واضمحل الإخلاص

بدا الشاهد يعني ظهر الشاهد

وفني الشواهد هو ينظر علي أن كل شيء يراه ذهب

وذهب الحواس لا يحس بنفسه لأنه يرى الله

واضمحل الإخلاص كان في وقت العبودية يبتغي وجه الله في الأوامر والنواهي ولو طلب الجنة والنار لا يؤثر في الإخلاص في حال المريد الإخلاص انه لا يريد دنيا ولا الآخرة في حال العارف يضمحل يبقي لا يوجد إخلاص هو يقول ليس في إخلاص لان وصلت لمرحلة أرى نفسه هو

هل يتأسف العارف على شيء غير الله عز وجل ؟ فقال: وهل يرى غيره فيتأسف عليه ؟ !قلت: فبأي عين ينظر إلى الأشياء ؟ فقال: بعين الفناء والزوال.

يعني كل هولاء فني عنهم ولم يعرفهم يعني لا يراهم

قال أبو يزيد العارف طيار و الزاهد سيار

العارف طيار يعني العارف إذا أرد أن يصل إلي الله فهو طيار إنما العابد الزاهد لابد أن يأخذ الطريق

وأجاب أيضا : **العارف لا يرى في نومه غير الله ، ولا في يقظته غير الله ، ولا يوافق غير الله ، ولا يطالع غير الله تعالى أبا علي الدقاق يقول: العارف مستهلك في بحار التحقيق؛ كما قال قائلهم: المعرفة أمواج تغطّ . ترفع وتحط .**

[20] - الرسالة القشيرية ٢/٦٠٦

هم عندهم الحقيقة تقابل الشريعة فالشريعة يتمسك بها العابد والحقيقة يتمسك بها العارف هم يدرون حول توحيد العبادة وتوحيد الربوبية يريدون أن يقول الوصول إلي توحيد الربوبية بتوحيد العبودية لكن عن طريق الصوفية ونحن عندنا توحيد رب العالمين أن تفرده بالخلق والتدبير أن الله هو الخالق الذي دبر أمور الكون فنؤمن بالخالق في إفراده بالقضاء والقدر وسائر التدبير

يقول أبو يزيد البسطامى :

طلقت الدنيا ثلاثا ثلاثا ، بتاتا لا رجعة فيها وصرت إلى ربى وحدي ، فناديته بالاستغاثة : إلهي أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك ، فلما عرف صدق الدعاء من قلبي ، والإياس من نفسي ، كان أول ما ورد على من إجابة هذا الدعاء ، أن أنساني نفسي بالكلية ونصب الخلائق بين يدي مع إعراضي عنهم [١]

لذلك في مصطلحات شفرات بحيث يقولوا لا يفهم هذه المصطلحات العوام بل يفهم هذه المصطلحات العارفون أو يفهموا أصحاب الحال الصوفي يفهم الصوفي بمجرد الإشارة بحيث لما يجلس معه يعرف كيف يتكلم وما هو اللسان الذي يتكلم به لسان العابدين أو لسان المريدين أو لسان العارفين

وهذا هو السبب الذي أد بأبي يزيد عندما قال

أبو يزيد البسطامى في التعبير عن حال فنائه واتحاده بمحبوبه فينطق بشطحات غريبة ، نحو

قوله : (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني [٢] **وقوله : سبحاني ما أعظم شأني** [٣] ٢

---

[٢١] - حلية الأولياء ٣٦/١ وانظر أيضا :كتاب الفناء للجنيد بن محمد ، نشره الدكتور محمد كمال جعفر فى كتابه التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص٣٠٣ وفيه تفاصيل دقيقة عن الفناء الصوفي ، وحال الفناء في التصوف الإسلامي ، إعداد إبراهيم محمد ياسين رسالة

[٢٢] - تذكرة الأولياء ١٣٧/١ .

[٢٣] - السابق ١٦٠/١ .

وقوله : خرجت من بايزيديتى كما تخرج الحية من جلدها ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد لأن الكل واحد في عالم التوحيد[٢٤]

وسئل ما هو العرش ؟ فأجاب : أنا هو ، وما هو الكرسي ؟ فأجاب : أنا هو ، وما هو اللوح والقلم ؟ فأجاب : أنا هو[٢٥]

طريق السلوك الصوفي للعابدين والمريدين والعارفين

في طريق الصحابة ومن كان علي نهجهم إذا أرد العبد أن يوحد ربه ما عليه إلا أن يخلص النية لله ويعمل بمتابعة النبي أما في طريق الصوفية فهو أمر أخر قالوا في طريق للعابد لابد أن يمشى سلالم لابد أن يطلعها مقامات لابد أن يعديها فلا يستطيع أن يوصل إلي مقام إلا بعد أن يخلص المقام الذي قبله

رسم الصوفية طريقا للعابدين الزاهدين ينتهي ببداية طريق المريدين المحبين ويبدأ طريق العارفين المحققين عندما ينتهي طريق المريدين فبداية طريق العابدين اجتياز المقامات وهي عندهم تبدأ بالتوبة ثم الورع يعقبه الزهد ثم الصبر ثم التوكل ثم الرضا وينتهي الطريق بالحرية فالحرية عندهم أخر مقامات العابدين وهي تعني بلوغ الصوفي تمام العبودية

مقام يعني حالة يقف فيها ويستوفيها مقامات العابد (التوبة – الورع – الزهد – الصبر – التوكل – الرضا)فهذه المقامات لها منطقية عقلية في التقسيم بحيث لا يمكن أن يدخل أحد في الورع إلا بعد أن يتم ويحقق التوبة

---

٢٤ - السابق ١٦٠/١

٢٥ - السابق ١٦٠/١

فهذه المقامات لها درجات في موطنها فمنازل السائلين هي كذلك فلما بن القيم أرد أن يشرح هذه المنازل بدا بتنقيتها معتمد فيها علي الأصول القرآنية والنبوية

فكل مقام من المقامات عند الصوفية له بداية ووسط ونهاية وكيف تمشي في هذه المقامات

فإذا وصل العابد إلي الرضا وصل إلي العبودية والصوفية أطلقوا علي هذه العبودية بمصطلح الحرية فلما يقول بفلان وصل للحرية أي انتهي من طريق العبودية

روى عن احمد بن خضروية قال في الحرية تمام العبودية وفي تحقيق العبودية تمام الحرية

وهو يقصد أن محرر ما سواء الله في الدنيا هنا عبودية ولم يدخل فيها الآخرة فهنا عبودية من الدنيا وشهواتها

فالعابد تحرر من عبودية المخلفات ليبقي حر بالطاعات وهذا مصطلح الحرية الذي يعنوه في غالبة الوقت لكن عندهم شيء خطا في الحرية وهو الحرية من العبودية وهم حذروا من هذا

طريق العابدين (التوبة – الورع – الزهد – الصبر – التوكل – الرضا) ثم يصل إلي الحرية وهي عندهم نهاية مرحلة العابدين وصل العبد للحرية أصبح مريد والمريد هنا لا يؤثر فيه صبر و

زهد المريد يعمل في درجة أخرى يبدأ يعيش في مذاقات إيمانية باعثه المحبة فأول شيء يتجاذب المريد بين الخوف والرجاء القبض والبسط الهيبة والأنس ثم التواجد والوجد والوجود ثم ينتهي عندهم ببداية طريق الفناء الصوفي

هم يسموا الدرجات التي يقطعها العابد مقامات والدرجات التي يقطعها المريد أحوال

الخوف والرجاء القبض والبسط ثم الهيبة والأنس ثم التواجد والوجد والوجود ثم ينتهي عندهم ببداية طريق الفناء الصوفي وهو العارفين وهو يبدأ بالفناء والبقاء ثم الجمع والفرق ثم الغيبة والحضور ثم المحور والإثبات ثم التلوين والتمكين فإذا وصل إلي التلوين والتمكين وانتهي منها وصل الي الحقيقة التي تقابل الشريعة والشريعة هي عندهم بداية العابدين التي تبدأ بالتوبة والحقيقة هي التي تنتهي بالتلوين والتمكين والصوفية يبحثون عن الحقيقة وليس الشريعة وهم الآن لا يصلون الي طريق الحقيقة من خلال هذه الدرجات لان جاء بعد ذلك أشياء أفسدت عليهم كل هذا وهو الحلول والاتحاد وأشد من ذلك وحدة الوجود وهو فكر خطير ففي نهاية طريق الفناء أو طريق العارفين هذا فما بال بفكرة وحدة الوجود المعتمدة علي أن هذا العالم هو الله وهذا هو مذهب بن عربي وهو فلسفة فكر الصوفية بحيث من يتبعه لا يفهمه بسهولة وهي عبارة يقول أن الكون هذا مثل المراية والله يري فيها نفسه فأي شيء يظهر في الكون هي الله في صورة أوصفه جبار يظهر في صورة فرعون ففرعون ليس فرعون إنما هو الله ظاهر في صورة فرعون علي زعم بن عربي وهذا كل فكر بن عربي وهو أن هذا العالم الذي يراه كثرة غير الذي يراه وحدة يقول إن هذه الأشياء التي ترونها كثرة إنما هي وحدة بعين التوحيد هو الله وفسر كل ما يتعلق بالدين من خلال هذه النظرة وعند بن عربي أجمل صورة يتجلي فيها الله هي محمد ومصطلح التجلي ومصطلح الوحدة أي أنتم ترونا الأشياء كثرة وإنما هي وحدة فظهر مصطلح لا موجود إلا الله كتفسير لا اله إلا الله عن الصوفية فجاءت الصوفية فقالوا في قول الله تعالى الجن والانس قالوا الا ليعرفون

فأصبح مصطلح سيدي العارف عند بن عربي مصطلح متواضع جدا عند بن عربي لان مادام في عارف يبقي في معروف عارف ومعروف وعابد ومعبود يبقي هذا اثنان وهي في الأصل وحدة فأصبح يتهكم من العارفين عند الصوفية

وهذه درجة التحقق التي يتكلمون عنها وهي درجة العارف الشيخ الهروي وهو ممثل مذهب أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات في العقيدة فسلك مسلك الصوفية ووضع كتاب منازل السالين ليقطع فها الخُط ليذهب إلي التحقق فوضع هذه الأبيات فقال

ما وحد الوحد من واحد . . . . . . إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته . . . . . . عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده . . . . ونعت من ينعته لأحد

قوله ما وحد الواحد من واحد يعني ما وحد الله عَجَّلَ أحد سواه

يعني لم يوحد أحد الله إلا الله وهذا يعني أن الرسول لم يوحد الله ومعلوم أن أصل التوحيد أن يقر العبد بأنه يوجد خالق ومخلوق وأن يفرد العبد الله عما سواه توحيد الربوبية أن تفرد الله بالربوبية توحيد العبادة أن تفرد الله بالعبادة توحيد الأسماء والصفات بما ثبت له

توحيد من ينطق عن نعته

عني الذي يوحد ويوصف ربنا

عارية أبطلها الواحد

يعني شيء أمانة مستردة فالمخلوقات عبارة عن مخلوقات خلقه الله عبارة عن عارية موجود عن واحد سيرجعها وهذه عارية ليس له قيمة ولا وجود

توحيده إياه توحيده

يعني هو الذي يوحد نفسه

ونعت من ينعته لأحد

يعني يبقي أي واحد يوصف ربنا هذا يلحد في التوحيد لان التوحيد ما ذكره الله في نفسه ولم يذكره غيره

وكل من وحد الله فهو جاحد لحقيقه توحيده فإن توحيده يتضمن شهود ذات الواحد وانفراده وتلك إثنينية ظاهرة بخلاف توحيده لنفسه فإنه يكون هو الموحد والموحد والتوحيد صفته وكلامه القائم به فما ثم غير فلا إثنينية ولا تعدد وأيضا فمن وحده من الخلق فلا بد أن يصفه بصفة وذلك يتضمن جحد حقه الذي هو عدم انحصاره تحت الأوصاف فمن وصفه فقد جحد إطلاقه عن قيود الصفات

وقوله توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد

يعني توحيد الناطقين عنه عارية أبطلها الواحد يعني عارية مردودة كما تسترد العواري إشارة إلى أن توحيدهم عارية لا ملك لهم بل الحق أعارهم إياه كما يعير المعير متاعه لغيره ينتفع به ويكون ملكا للمعير لا للمستعير

يريد أن يقول إن الله هو الذي أعطانا الصفة وخلقنا فتوحيدنا ليس له قيمة بل هو عارية

وقوله أبطلها الواحد أي الواحد المطلق من كل الوجوه وحدته تبطل هذه العارة وتردها إلى مالكها الحق فإن الوحدة المطلقة من جميع الوجوه تنافي ملك الغير لشيء من الأشياء بل المالك لتلك العارية هو الواحد فقط فلذلك أبطلت الوحدة هذه العارية

وقوله توحيده إياه توحيده أي توحيده الحقيقي هو توحيده لنفسه بنفسه من غير أثر للسوى بوجه بل لا سوى هناك وقوله ونعت من ينعته لأحد أي نعت الناعت له إلحاد وهو عدول عما يستحقه من كمال التوحيد فإنه أسند إلى نزاهة الحق مالا يليق به إسناده فإن عين الأولية تأبى نطق الحدث ومحض التوحيد يأبى أن يكون للسوي أثر ألبتة [26]

وكلام الهروي هنا كلام باطل يثبت فيه طلاقة القدرة وتوحيد الربوبية وينفي حقيقة الأسباب المظهرة للحكمة وتوحيد العبودية وقد أبطلا كلامه شيخ الإسلام بن تيمية وشبه بكلام النصارى في حلول اللاهوت بالناسوت الطريق الذي تكلمنا عنه هو

طريق العبادة يبدأ

التوبة – الورع – الزهد – الصبر – التوكل – الرضا – الحرية - الخوف والرجاء - القبض والبسط - الهيبة والأنس - التواجد والوجد والوجود - الفناء والبقاء - الجمع والفرق - الغيبة والحضور - المحور والإثبات - التلوين والتمكين - الحقيقة والشريعة

مادام هذا طريق وأصبحت هذه طريقة فلازم يكون شيخ قطع هذا الطريق فممكن واحد يقول يعني إياه شيخ طريق

---

[26] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن قيم الجوزية ٣\٥١٤

فالذي مضي طريق العبودية الذي رسمه مقامات وأحوال فالشيخ الذي قطع كل هذا ووصل إلي عارف وتحقق في مقام الشريعة وأصبح عند حقيقة وشريعة فهذا شيخ يأتي بالمريدين ومن هنا ظهر مصطلح الطريقة وشيخ الطريقة فمعني طريقة صوفية يعني أن يُضرب العابدين ليصبحوا مريدين ثم يُضرب المريدين ليصبحوا عارفين فلما يصلوا إلي المعرفة يحلوا محل العارف الذي أعطاهم الطريقة

منهج منظم باسم الطريقة يشير الي مجموعة من الأخلاق والآداب يتمسك بها العابدون الزاهدون بعد ذلك يتمسك بها المريدين المحبون ثم العارفون المحققون من الصوفية

قال أبو علي الدقاق

الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً فهو عابد هواه، ولا يجد نفاذاً

وهذا لا يلزمنا في شيء لأنه لو لابد في طريق العبودية من أن يكون أولا عابد ثم مريد ثم عارف لكان الأول أن يعرف ذلك الصحابة وما رأينا النبي علم أصحابه أن يكون عابد ثم مريد ثم عارف [٢٧]

بقلم الباحث / محمد حمدى سيد صالح

(أبو عُمير محمد الحلوانى)

[٢٧] - الرسالة القشيرية ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وآخر ٧٣٥/٢ وانظر مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٩٧ .